تمثالا حربوقراط وديونيسوس فى مجموعة سيدي بشر بالمتحف اليوناني الروماني

أ.د عزيزة سعيد محمود *

فى يناير ١٩٧٣ عثر بالصدفة بسيدى بشر بالإسكندرية على خبيئة أثرية على شكل إطار دائرى غير مسقوف مبنى من مواد طينية، يبدو أنه أعد فى عجالة لإخفاء مجموعة من التماثيل لحمايتها من خطر ما. الخبيئة تتضمن أحد عشر تمثالاً مرمرياً بالإضافة إلى حامل مائدة[1] التماثيل هى تمثال لأبى الهول، ثلاثة تماثيل صور شخصية لسيدات،[2] وبقية التماثيل لآلهة: تمثالان للإلهة فينوس،[3] تمثال لإله النيل وآخر للإله اسكلبيوس، وتمثال للإلهة هيجيا وآخر للإله مارس، بالإضافة لتمثالين أحدهما للإله حربوقراط والآخر لديونيسوس والأخيران موضوع هذا البحث لم يسبق دراستهما من قبل. تماثيل سيدى بشر تتراوح فى ارتفاعاتها ما بين ٣٠ و ١٤٠ سم وترجع فى تأريخها ما بين القرن الثانى والرابع الميلادى، والمجموعة كلها موجودة الآن بالمتحف اليونانى الرومانى بالإسكندرية.

حربوقراط الممثل هنا طفلاً أو صبيا صغيراً كون مع إيزيس وسرابيس الثالوث المقدس الذى وضع بطلميوس الأول أسس عبادته للتقريب بين المصريين والإغريق، ولنشر هذه العبادة الجديدة خارج مصر. اسم حربوقراط[4] Harpocratés يعنى فى اللغة المصرية القديمة حورس الطفل، ولذلك ورث حربوقراط جميع خصائص الإله المصرى حورس الطفل، ومن أهمها أنه إله السماء بما فيها من شمس وقمر ونجوم، وملك مصر السفلى والعليا وغيرها من المخصصات. لقد استحب الفنانون التشكيليون والنحاتون طوال العصرين البطلمى والرومانى تصوير حربوقراط فى أنماط متعددة اختلفت فيها الرموز التى يحملها الإله ما بين تيجان أو

---

* أستاذ ــ كلية الآداب ــ قسم الآثار اليونانية والرومانية ــ جامعة الإسكندرية

[1] فى عام ١٩٧٧ نشرت بربارا جاسوفسكا مقالة صغيرة ضمت جميع القطع دون أن تضمنها أية دراسات تفصيلية، ارجع إلى

B. Gassowska, Depozet rezezb Sidi Bishr W. Alexandrii, in Alexandria in the Polish investigations, Institute of Archeology of the University Jagiellonski, Warsawo 1979, pp. 99-119.

[2] أحد هذه التماثيل الثلاثة يصور سيدة مضجعة كانت موضوعاً لبحث ألقيته باللغة الإيطالية فى المؤتمر الدولى بروما ١٩٩٢، ارجع إلى

A. SAID MAHMOUD, Tre donne semisdriate al Museo Greco – Romano di Alessandria, in Alessandria E II Mondo Ellenistico – Romano, Roma 1995.

[3] أحد تمثالى فينوس غير كامل ويمثل الآلهة مستندة على دعامة، والتمثال الآخر يمثل فينوس تحمل كيوبيد، والأخير قمت بنشره فى دراسة علمية طويلة، أرجع إلى: عزيزة سعيد محمود، تأملات فى تمثال فينوس سيدى بشر بالمتحف اليونانى الرومانى، مجلة كلية الآداب – العدد ٢٩ لسنة ١٩٨١.

[4] من أحدث الدراسات العلمية عن حربوقراط هى:

V. TRAN TAM TINH – B. JAEGER – S. POULIN, LIMIC, IV, Zurich – Munchen 1989, pp.415-445.

زهور[٥] أو تلك التى تصاحب الإله من طيور وحيوانات،[٦] وبالتالى اكتسب حربوقراط قدرات ومخصصات لم تكن له فى العصر الفرعونى. من أكثر الأنماط شيوعاً لحربوقراط ذلك النمط الذى يمثله طفلاً أو صبياً واقفاً عارياً وهو يقرب سبابته من فمه وبجانبه دعامة عليها حرملته، إذ عثر على أعداد كبيرة من هذا النمط من التماثيل الفخارية الصغيرة ومن البرونز من العصرين البطلمى والرومانى، وهو النمط الممثل فى تمثال سيدى بشر. (لوحة ١)

التمثال من المرمر الأبيض يبلغ ارتفاعه ٥٨سم ويمثل حربوقراط طفلاً عارياً، يقف فوق قاعدة دائرية. الإله يقرب سبابة يده اليمنى من شفتيه المنفرجتين للرمز إلى الدعوة للصمت من قبل المشاركين فى الطقوس الغامضة، وليس للتعبير عن الحركة المعتادة لدى بعض الأطفال بوضع الإصبع فى الفم وهى خاصية فنية تمتد فى جذورها للفن الفرعونى وإن اختلفت فى مدلولاتها من موضوع لآخر.[٧] الذراع اليسرى للإله مكسورة من أعلى العضد، والإله ممثل هنا وهو يخطو إلى الأمام بتقدم ساقه اليسرى الحاملة لثقل الجسم إلى الأمام، بينما تتراجع الساق اليمنى إلى الوراء. يجاور الساق اليمنى ويلتصق بها من أعلى دعامة صغيرة عليها حرملة الإله موضوعة بإهمال. يلاحظ هنا أن الدعامة وضعت فى الجهة المقابلة للساق التى تحمل ثقل الجسم لضبط توازن الإله فى هذا الوضع. جسم الإله يتميز بالليونة والتموج المصاحب لهذه الوقفة وإن كان يميل للسمنة خاصة فى الجذع السفلى. الوجه يتميز أيضاً بالامتلاء مع عدم إبراز زوايا مسطحات الوجه كما لو كان الوجه تكسوه غلالة رقيقة فيما يعرف باسم Sfumato. العيون الصغيرة محدد بها الحدقة وإنسان العين، أما الشعر فإنه يتميز بالكثافة والتشكل فى بوكلات حلزونية تتدلى على الرقبة، بينما يحيط بالرأس عصابة يعلوها هلال طرفه الأيسر مكسور.

نظراً لتكرار هذا النمط فى العديد من التماثيل الصغيرة الفخارية والبرونزية، بالإضافة للعملة وذلك بدء من العصر الهلينستى، فإن هذا يدل على وجود أصل مشهور لهذا النمط لا شك وأنه كان منفذاً على مقاييس براكستيليس ليس فقط لانحناءة الجسم بشكل متموج، ولكن لأسباب فنية أخرى مثل تشكيل الشعر فى خصلات ملتوية تذكرنا بتمثال براكستيليس الشهير للساتير فى وضع الاسترخاء، أيضاً لوجود الدعامة وعليها حرملة الإله لتدعيم الوقفة والتى

---

[٥] من أهم الأزهار التى صورت مع حربوقراط زهرة اللوتس التى كانت لها قدسية خاصة نظراً لارتباطها بالآلهة الشمسية وبالنيل وبأصل الحياة والنسل. وأهمية اللوتس بالنسبة لحربوقراط أنها إشارة للنشأة الأولى لحورس فى أحراش الدلتا حيث تنمو هذه الزهرة، كما أنها كانت السبب فى شفاء حربوقراط من لدغة الثعابين، ارجع إلى:

DUNAND, Catalogue des terres cuites Greco romain d'Egypte, Paris 1990, pp. 83 – 85; A. ADRANI, Annuaire du Musee Greco – romain (1935 – 1939) pp. 146; E. BRECCIA, Terre cotte figurate Greche e Greco – Egizie del Museo di alessandria, in Monuments d'Egypte Greco- Romaine, II, Bergamo 1930, pp. 55.

[٦] لمعرفة المزيد عن دلالات الأشياء المصاحبة لحربوقراط، ارجع إلى:

F. DUNAND, op.cit., p. 6- 15.

[٧] ارجع إلى:

p. ex. Vogt, Exp. V. Sieglin, II, 2, pl. XIII; Breccia, Terrecotte, op.cit., pl.XVII – XVIII.

تذكرنا بتمثال براكستيليس للإله هرميس بأوليمبيا. فقداننا لأصل هذا النمط لا يقف عائقاً أمام يقيننا بأن الأصل الهلينستى لم يتبع تماماً فى الأعمال الفنية التى تبعته، إذ شاب هذا الأصل شئ من التصرف البسيط قام به الفنانون بمرور الوقت مثل مكان الدعامة على يمين أو يسار الإله، مثل شكل العصابة فوق الرأس فأحياناً اقتصرت على العصابة وأحياناً أخرى أضاف إليها الفنانون أشياء أخرى مثل براعم اللوتس أو الشكل الهلالى أو تاج الوجهين. الاختلافات لم تقتصر فقط على التماثيل الفخارية والبرونزية، ولكن ظهرت أيضاً فى التماثيل المرمرية التى لم يعثر منها إلا على تمثالين من العصر الرومانى أحدهما تمثال سيدى بشر والآخر تمثال حربوقراط من معبد الرأس السوداء والاختلاف بينهما يظهر فى اعتماد الجسم فى تمثال الرأس السوداء على الساق اليمنى وبالتالى وجود الدعامة فى الجانب الأيسر مع اقتصار عصابة الرأس فى هذا التمثال على الشريط فقط.

ليونة التشكيل فى تمثال سيدى بشر فيما يعرف باسم Morbridezza، بالإضافة إلى اختفاء الحدود الفاصلة بين ملامح الوجه فيما يعرف باسم Sfumato مع صغر حجم التمثال يدل بوضوح على أن تنفيذ هذا التمثال تم بأحد أتيليهات الإسكندرية، غير أن اعتماد التمثال على أصل هلينستى أضفت على التمثال برودة التقليد وليس حيوية الابتكار.

بالنسبة لتأريخ التمثال فإن طريقة تنفيذ العيون بتحديد الحدقة وإنسان العين، مع فقدان التناسب بين حجم الرأس والجسم وبين الجذع العلوى والسفلى كلها مميزات تحملنا إلى أواخر القرن الثانى أو بداية القرن الثالث الميلادى.

من الواضح أن تمثال حربوقراط سيدى بشر لم يكن مخصصاً للعبادة لصغر حجمه، كما أنه لم يستخدم لأغراض جنائزية حيث لم يعثر من قبل على تماثيل مرمرية لحربوقراط داخل المقابر إذ اقتصر تصويره فى المقابر على التماثيل الفخارية والبرونزية، ولذلك يبدو أن هذا التمثال استخدم لأغراض دنيوية خاصة لاقتصار رموز الإله هنا على الشكل الهلالى الذى يعلو الرأس، والذى يرمز هنا إلى قدرة الإله على الحماية وخاصة بالنسبة للنساء لما للقمر من تأثير على النساء، بالإضافة إلى أن صقل التمثال من جميع الجهات لتحقيق الرؤية الشاملة، يجعل من المرجح أن هذا التمثال استخدم لتزيين حديقة إحدى فيلات الأثرياء من السكندريين الذين كانت تتناثر فيلاتهم على طول قناة النهر الممتدة حتى كانوب، أى بالقرب من موقع اكتشاف الخبيئة فى سيدى بشر.

التمثال الآخر من مجموعة سيدى بشر والذى يتقارب مع تمثال حربوقراط فى مظهره العام هو تمثال الإله ديونيسوس طفلا. ديونيسوس كما هو معروف من الأساطير الإغريقية أنه ابن الإله زيوس من سيميليه ابنة كادموس ملك طيبة، عانى الأهوال منذ أن كان جنيناً فى أحشاء أمه بسبب غيرة هيرا زوجة زيوس، واستمرت هذه الأهوال بعد مولده ونموه تحت رعاية الماينياديس والساتيرى والسيلينى. اضطرته هيرا للترحال فى بلاد عديدة حتى نشر عبادته فى بلاد اليونان وجميع الجزر.

كان فى البداية إلهاً للخمر وإخصاب الطبيعة، ثم أصبح إلهاً للمرح والنشوة والمسرح الذى يعتبر عنوان المدنية فى بلاد اليونان. ربطت الأساطير بين ديونيسوس وبين زاجيريوس Zagereus الإله الكريتى القديم، وبالتالى ربط المؤمنون به بينه وبين البعث بعد الموت، ولذلك ارتبط ديونيسوس فى أتيكا بالآلهة ديمتر وكورى وأصبح عضواً فى الأسرار الأليوسية

فى العصر الكلاسيكى.[٨] انتشرت عبادة ديونيسوس فى العصر الهلينستى فى جميع أجزاء العالم القديم ومنها مصر حيث وضع بطلميوس الرابع أسس عبادة ديونيسوس بتماثله مع أوزوريس المتوفى أى سرابيس[٩] لكى يجمع ما بين الإغريق والمصريين عن طريق هذه العبادة. النقوش اليونانية بمصر تؤكد على تماثل ديونيسوس مع سرابيس، إلا أن هذا التماثل لم يؤثر على المظهر الخارجى للإله الذى ظل إغريقيا.

صور ديونيسوس فى الفن فى العصر الأرخى والكلاسيكى كرجل ناضج وملتح، أما فى العصر الهللينستى والرومانى فقد صور طفلاً أو صبياً أو شاباً يافعاً كما يشهد على ذلك العديد من الأمثلة خاصة فى مجال الموازيكو والنحت.[١٠] من أكثر الأنماط شيوعا لديونيوس طفلاً أو شاباً يافعا خلال العصرين الهلينستى والرومانى ذلك النمط الذى يمثله واقفا عاريا ممسكا بإحدى يديه إناء الكنثاروس ومن أسفله يصور فهداً رافعا رأسه لالتقاط قطرات الشراب المنسكبة من آنية الإله، بينما يوجد على الجانب الآخر من الإله جذع شجرة أحياناً يلتف عليها فرع من نبات العنب المحملة بالثمار والأوراق مثل تمثال ديونيسوس من مربوط والموجود الآن بالمتحف اليونانى الرومانى بالإسكندرية [١١] ،وهو نفس نمط تمثال ديونيسوس سيدى بشر.

التمثال من المرمر الأبيض ارتفاعه ٤٠سم يمثل ديونيسوس صبياً صغيراً عاريا. الإله يقف فوق قاعدة مستطيلة مستنداً بثقل جسمه على الساق اليسرى مع تقدم اليمنى قليلاً إلى الأمام (لوحة ٢). الشكل المتوج لانحناءات الجسم، مع اعتماد الثقل على إحدى الساقين يضاعف من التعبير عن الاسترخاء. الذراع اليمنى للإله مرفوعة بعيدا عن الجسم ومكسورة عند نهاية العضد، أما فى الجانب الأيسر فإن الذراع متدلية إلى الأسفل بجانب الجسم واليد تقبض على جسم أسطوانى صغير مكسور عند حافتى اليد. فى هذا الجانب وفوق القاعدة يوجد فهد يرفع رأسه إلى أعلى وحول رقبته ممثل طوق حافته العليا مكسورة مما يدل على أن الفهد صور مطوقاً بمقود يمسك زمامه الإله بيده اليسرى، وهذا يفسر لنا وجود الجسم الأسطوانى فى يد ديونيسوس. رأس الإله تتجه تماماً نحو الجانب الأيمن، الشعر فى شكل خصلات حلزونية والوجه المستدير تغمره ابتسامة تضئ الوجه كله. العيون صغيرة والحدقة وإنسان العين محددان مع إبراز نظرة تعكس الحيوية والطابع العابث للإله.

ليس من السهل تفسير تلك النظرة العابثة الخبيثة إلا من خلال تخمين ما كان يشير إليه الإله أو يحمله بيده المكسورة. من الواضح أن اليد اليمنى للإله كانت ممتدة إلى الأمام

---

[٨] ارجع إلى:
R. Grves, New larouse, Encyclopedia of Mythology, Hamlyn, USA, 1978, pp. 155 – 160.

[٩] ارجع إلى:
P.Perdrizet, Les terre cuites Grecques d'Egypte de la collection Fouquet, Paris, pp. 81.

[١٠] ارجع إلى:
J. J. Pollit, Art in the Hellenistic age, Cambrige, 1984, pp. 150, 197, 213, 219.

[١١] إرجع إلى:
A. Adriani, Annuario del Museo Greco – Romano vol.1 (1932 – 33), pp. 40-41.

على يمين الجسم أو مرفوعة إلى أعلى فى اتجاه الرأس، ومع نفى احتمال وجود أى شيئ يشير إليه ديونيسوس لاقتصار التكوين على العناصر السابق الإشارة إليها، يتبقى لدينا الاحتمال الآخر الخاص بإمساك الإله لشئ ما بهذه الذراع سواء كانت الذراع ممتدة إلى الأمام أو مرفوعة إلى أعلى. هل كان ديونيسوس يحمل فى يده العصى الخاصة به كما فى تمثال برونزى من بومبى وموجود الآن بالمتحف البريطانى، أو أن الإله كان يحمل فى يده عنقوداً من العنب كما فى التمثال المرمرى لديونيوس محمولاً من الساتير والموجود بمتحف باللتيمور فى بوسطن، أو أنه كان يحمل تاجا نباتيا كما هو مصور فوق آنية أتيكية. هذه الاحتمالات لا تفسر تلك النظرة الخبيثة والعابثة للإله، لذلك اعتقد أن الإله كان يحمل فى يده إناء الكنثاروس الذى طالما حمله ديونيسوس خاصة فى الأنماط التى تجمعه مع الفهد، إلا أنه فى هذه الأنماط دائماً ما يحمل الإله الآنية فى نفس الجانب المصور به الفهد كما فى تمثال مربوط السابق الإشارة إليه. فى تمثال سيدى بشر الفهد مربوط بالمقود ويتطلع إلى الإله فى انتظار قطرات الشراب بدون جدوى، لأن الإله كان يحمل الكنثاروس بعيداً عن الفهد مما يفسر لنا سر تلك النظرة العابثة التى تطل من عينى ديونيسوس. بمعنى آخر لم يتبع فنان هذا التمثال نمطية التماثيل السابقة، بل أضفى إليها ابتكاراً جديداً أضفى الحيوية على التمثال. الابتكار فى ديونيسوس سيدى بشر يظهر فى عنصر آخر من هذا التكوين الفنى الرائع، فشكل الشجرة فى أنماط ديونيسوس المنحوتة يقتصر فى العادة على جذع شجرة تمثل فى العادة إلى جانب الإله، أما فى تمثال سيدى بشر فإن عنصر الشجرة تحول هنا إلى شجرة ذات فروع متعددة تغطى خلفية الإله وتقوى من التكوين بالارتباط بجسم الإله بواسطة قطع مرمرية مكونة ما يشبه المشكاة حول الإله، وإلى جانب هذه الشجرة جذع شجرة آخر صغير للإشارة لجذع الشجرة المعتاد تصويره مع الإله. إلى هذين الابتكارين يمكننا إضافة ابتكار ثالث يتمثل فى الزوائد المرمرية التى تمتد بالذراعين والكتفين والرأس مما يدل على أنه كان هناك فرع نباتي ربما كان لنبات العنب وأن هذا الفرع ربما كان من البرونز المذهب.

أيضاً هذا التمثال منفذ على مقاييس براكستليس، والعناصر الفنية مثل تحديد الحدقة وإنسان العين مع دقة الصقل وتناسب أجزاء الجسم تؤرخ هذا التمثال بمنتصف القرن الثانى الميلادى. ليونة التشكيل morbidezza وغموض الملامح sfumato، بالإضافة إلى صغر حجم التمثال كلها عناصر فنية تؤكد أن التمثال قام بتنفيذه فنان سكندرى. صغر حجم التمثال يستبعد معه إمكانية استخدامه للعبادة، كما أنه من الأنماط التى لا تستخدم فى الأغراض الجنائزية، ويبدو أن هذا التمثال أيضاً كان يستخدم لتزيين إحدى فيلات الأثرياء السكندريين.

إذا كان تمثال حربوقراط قد عكس نمطية فى التشكيل مما أفقده حيوية الابتكار، فإن تمثال ديونيسوس بكل ما يتضمنه من عناصر فنية جديدة أضفت إليه حيوية فائقة مما يؤكد أن وحدة المكان ووحدة المرحلة العمرية المصور بها حربوقراط وديونيسوس، بالإضافة إلى تقارب التاريخ بينهما لم يقف عائقا أمام التباين بين مدرستين فنيتين بالإسكندرية إحداهما تنتمى في جذورها إلى العصر الهلينستى الذى استوحت منه نمط حربوقراط بدون أية إضافات، بينما المدرسة الفنية الأخرى لم تقنع بما حققه الفن السكندرى خلال العصر البطلمى، واستمرت على قدرتها الخلاقة فى الابتكار وكأننا بهذا التباين أمام تباين اتجاهات المدارس الفنية فى العصر الهللينستى التى اكتفى البعض فيها بتقليد أنماط العصر الكلاسيكى مثل المدرسة الأتيكية، بينما ابتكر البعض الآخر أنماطاً جديدة ترتبط فقط بفكرة النمط الكلاسيكى مثل المدارس الفنية لآسيا الصغرى والإسكندرية.

لوحة (١)
حربوقراط سيدى بشر بالمتحف اليوناني الروماني

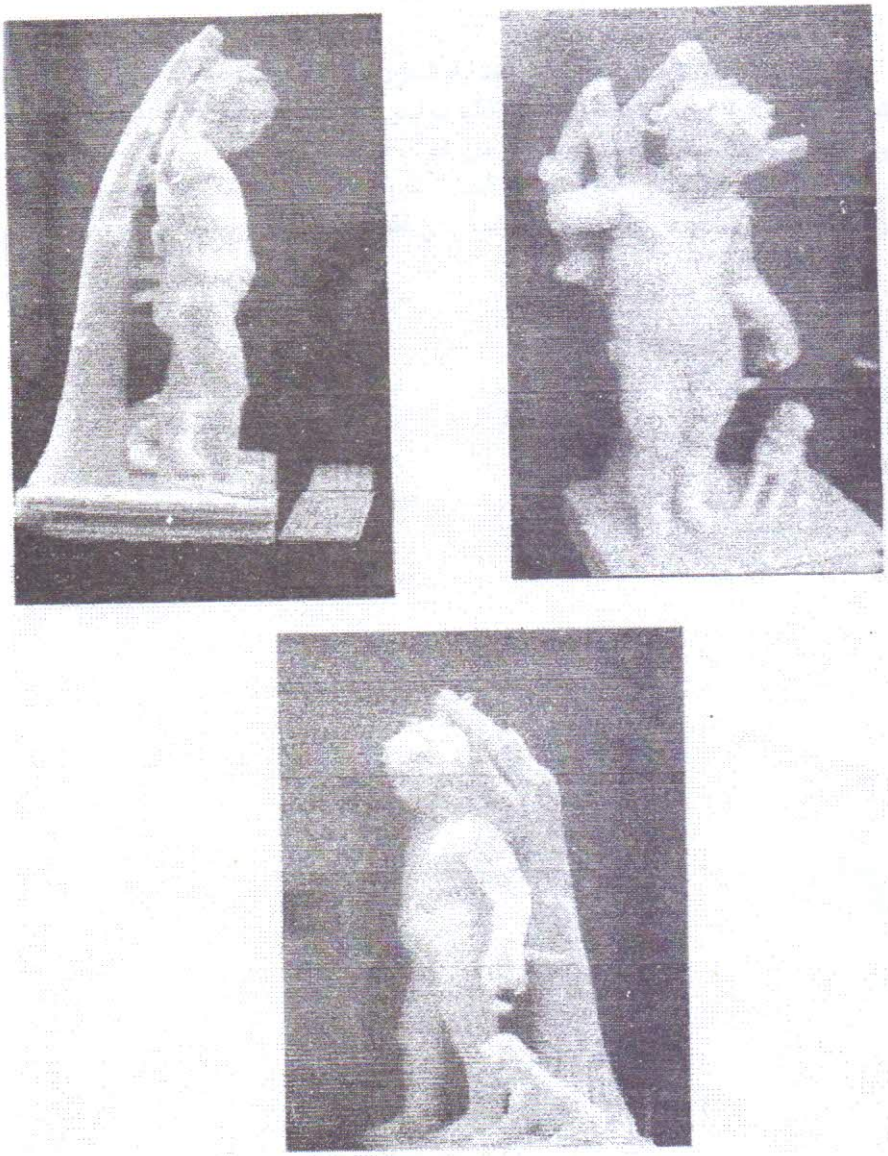

لوحة (٢)
ديونيسوس سيدي بشر بالمتحف اليوناني الروماني